

ورقة بحثية مقدمة إلى

المؤتمر الدولي السابع للبحث العلمي والمخطوطات

ودورهما في البناء الحضاري – إسطنبول

بعنوان

وثائق الأوقاف في طرابلس الشام

سجلات إنسانية لأمة حضارية

صورتان إنسانيتان لا تعرف البشرية لهما مثيلا

أ.د/ ماجد أحمد نيازي الدرويش

أستاذ الحديث الشريف وعلومه في جامعة الجنان

طرابلس لبنان

1436 هـ / 2015م


بسم الله الرحمن الرحيم

مختصر البحث

في عام 2008م تم انتخاب سماحة الدكتور الشيخ مالك الشعار مفتيا لطرابلس ولبنان الشمالي، ويومها جاء معه مجموعة من المساعدين المتخصصين من أساتذة الجامعات الأكاديميين ليعينوه في مهمته والتي من جملتها النظر في شؤون أوقاف طرابلس ولبنان الشمالي.

وبالفعل بدء فريق العمل بالنظر في وثائق الأوقاف الموجودة وبممتلكات الدائرة، وتفاجأ الجميع يومها بأن المعطيات الموجودة تكاد تكون غير كافية وغير معبرة بشكل جيد عن واقع الأوقاف. لذلك بدأ البحث عن السجلات القديمة والتي وجد أكثرها موضوعا في أقبية قديمة لأجل التلف، فعمل الفريق على نقل هذه الوثائق وفرزها، ثم أرشفتها، وأثناء هذا العمل المضني وقف الفريق على وثائق تاريخية لأوقاف طرابلس في غاية الأهمية، وهي غير معروفة عند الباحثين التاريخيين، ومنها غير مسبوق وغير معهود، كأن يقف رجل غير مسلم أوقافا على مسجد ..

لذلك أحببت أن يكون بحثي في بعض هذه الوثائق الهامة والتاريخية، والتي تعطينا فكرة جديدة عن طبيعة الحياة في طرابلس في الفترة المملوكية والعثمانية، والتي كانت تتماشى مع التقدم الحضاري الذي غلب على بلاد الإسلام، وعن الرقي الحضاري الذي بلغته، والذي يندر أن يعرف التاريخ له مثيلا..

البحث

الحمد لله تعالى الذي جعل في صلاح الآباء صلاح الأجيال.

والصلاة والسلام على من أوضح للناس سبل الهداية، وعرفَّهم بصالح الأعمال، وعلى الصَّحبِ والآل، ينابيع الهدى، من سبَّلوا للناس الدعوة إلى الله تعالى بالحال قبل المقال، وبعد:

مقدمة:

فإن من أعظم مقاصد شريعة الإسلام النظر في مصالح العباد في الحال والمآل، لذلك كانت السياسة الشرعية من أهم ما يشتغل به العبد بعد طاعاته المفروضة.

وفي مثل هذا يقول الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: «إن مقاصد الخلق مجموعة في الدين والدنيا، ولا نظام للدين إلا بنظام الدنيا، فإن الدنيا مزرعةُ الآخرة، وهي الآلة الموصلة إلى الله عزّ وجلّ لمن اتخذها آلةً ومنزلاً، لا لمن يتخذها مستقراً ووطناً. وليس ينتظم أمر الدنيا إلا بأعمال الآدميين، وأعمالهم وحِرَفُهم وصناعاتهم تنحصر في ثلاثة أقسام:

أحدها أصول لا قوام للعالم دونها وهي أربعة: الزراعة — وهي للمطعم –، والحياكة – وهي للملبس، والبناء — وهو للمسكن –، والسياسة — وهي للتأليف والاجتماع والتعاون على أسباب المعيشة وضبطها». ثم قال: «وأشرف أصولها السياسة بالتأليف والاستصلاح، ولذلك تستدعي هذه الصناعة من الكمال فيمن يتكفّل بها ما لا يستدعيه سائر الصناعات، ولذلك يستخدم لا محالة صاحبُ هذه الصناعة سائر الصنّاع»[1].

ومن ينظر في نظم الأوقاف نظرة فاحصة يدرك بأنها قد حققت هذه الأصول في حياة الناس خير تحقيق، ذلك أن الأوقاف شملت: البساتين التي هي محل للزراعة المؤمنة للمطعم، وآلات الحياكة لصنع الثياب وأوقاف لاستبدال القديمة بأخرى جديدة أو أحسن حالا، وإقامة الأبنية

[1] إحياء علوم الدين، على هامش (اتحاف السادة المتقين): 126/1 – 127.

على أنواعها: مساجد، مدارس، منازل لسكنى الفقراء وأبناء السبيل وحتى أخرى خاصة بالنساء اللواتي لا معيل لهنَ[2]، فتحصل من كل ذلك حقيقة إعانة الناس على التأليف والاجتماع، بحيث انتفت الأنانيات، وانتفى استئثار الأغنياء بالأموال دون الفقراء.. وهل السياسة إلا هذا؟

لذلك اعتُبرت السياسة الشرعية من أشرف الصناعات لما فيها من تحقيق مصالح العباد، فعلمنا بالتالي أن كل ما فيه تحقيق مصالح العباد هو من السياسة الشرعية. وهذا هو البعد الحقيقي للحضارة.

يقول الدكتور مصطفى السباعي[3] رحمه الله تعالى: «يعرّف الحضارةَ بعضُ الكاتبين في تاريخها بأنها: "نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي"»، قال: «وتتألف الحضارة من العناصر الأربعة الرئيسية: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخُلُقية، ومتابعة العلوم والفنون».

ونحن لو نظرنا في نظام الوقف ومقاصده لوجدنا هذه العناصر الأربعة متمثلة فيه أتم تمثيل، إضافة إلى كونه الركيزة الأساس في نشر الثقافة والعلم بين الناس، وذلك من خلال المدارس التي أنشئت، والأوقاف التي رصدت للمدرسين فيها وللدارسين، مما خلَّف في تاريخنا ثروة علمية هائلة تعتبر حتى اليوم الركيزة الأساس للتقدم العلمي الذي ترفل به البشرية.

---

[2] - من ذلك مثلا وقف (الخانقاه الصالحية) على الأرامل المنقطعات بها في محلة العوينات في طره بلوس (طرابلس) كما جاء في الدفاتر العثمانية لأوقاف وأملاك لواء طرابلس، ينظر (الأوقاف الإسلامية في بلاد الشام منذ الفتح العربي الإسلامي إلى نهاية القرن العشرين: المجلد الرابع / لبنان. ص: 66، بحث بعنوان: الأوقاف الإسلامية في طرابلس الشام من وثائق الأرشيف العثماني وأهميتها في رصد حركة العمران، لأستاذنا الدكتور عمر تدمري) منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام – الجامعة الأردنية/ عمان. 1431هـ/2010م. ويقول أستاذنا مؤرخ طرابلس الدكتور عمر تدمري، كاتب البحث: وفي سجلات المحكمة الشرعية بطرابلس ما يفيد أن الواقف للخانقاه هو امرأة يشار إليها بالست الصالحة. (المرجع نفسه).

[3] - في كتابه (من روائع حضارتنا/ ص: 69).

يقول **سارتون**[4]: "حقق المسلمون؛ عباقرة الشرق؛ أعظم المآثر في القرون الوسطى، فكتبت أعظم المؤلفات قيمة، وأكثرها أصالة، وأغزرها مادة باللغة العربية. وكانت من منتصف القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادي عشر لغة العلم الارتقائية للجنس البشري، حتى لقد كان ينبغي لأي كان إذا أراد أن يلم بثقافة عصره، وبأحدث صورها أن يتعلم اللغة العربية. ولقد فعل ذلك كثيرون من غير المتكلمين بها"[5].

ويقول **جوستاف لوبون**[6]: «كان تأثير العرب "أي: المسلمين" في الغرب عظيمًا للغاية، فأوروبا مدينة للعرب – أي: المسلمين – بحضارتها. ونحن لا نستطيع أن ندرك تأثير العرب – أي: المسلمين – في الغرب إلا إذا تصورنا حالة أوروبا عندما أدخل العرب – أي: المسلمون – الحضارة إليها»[7].

وتقول المستشرقه **زغريد هونكه**[8]: «قبل 600 عام كان لكلية الطب الباريسية أصغر مكتبة في العالم، لا تحتوي إلا على مؤلف واحد، وهذا المؤلف كان لعربي كبير. ولقد اعترف الباريسيون بقيمة هذا الكنز العظيم، وبفضل صاحبه عليهم وعلى الطب إجمالًا، فأقاموا له نصبًا في ساحة

---

4 - جورج ألفريد ليون سارتون صيدلي ومؤرخ بلجيكي يعتبر مؤسس علم تاريخ العلوم ولد في ٣١ أغسطس من عام ١٨٨٤م في بلجيكا، وتوفي في ٢٢ مارس من عام ١٩٥٦م في الولايات المتحدة.

5 - نقلا عن كتاب (الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها ولمحات من تأثيرها في سائر الأمم ، المؤلف: عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (المتوفى: 1425هـ) رحمه الله تعالى، ص: 653).

6 - غوستاف لوبون هو طبيب ومؤرخ فرنسي، عمل في أوروبا وآسيا وشمال أفريقيا، كتب في علم الآثار وعلم الانثروبولوجيا، وعني بالحضارة الشرقية. ولد في ٧ مايو من عام (١٨٤١) وتوفي في ١٣ ديسمبر من عام (١٩٣١).

7 - الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها ولمحات من تأثيرها في سائر الأمم، ص: 654. مرجع سابق.

8 - زيجريد أو زيكريد هونكه (26 أبريل 1913 في كيل - 15 يونيو 1999 في هامبورغ) كانت مستشرقة ألمانية معروفة بكتاباتها في مجال الدراسات الدينية، وحصلت على شهادة الدكتوراه عام 1941.. اشتهر عنها في آخر حياتها أنها كانت تنظر للإسلام نظرة معتدلة كما هو واضح من أشهر تراجم كتاباتها انتشارا في العالم العربي وهما (شمس العرب تسطع على الغرب) وكتاب (الله ليس كذلك).

القاعة الكبيرة في مدرسة الطب لديهم، وعلقوا صورته وصورة عربي آخر في قاعة أخرى كبيرة تقع في شارع "سان جرمان" إنه أبو بكر محمد بن زكريا الرازي»[9].

من هنا كان الوقف وجها نيرا من وجوه الحضارة الإسلامية، هذا إذا لم يكن هو الوجه النير لهذه الحضارة..

فالوقف مما تتحصل به مصالح العباد، لأنه يضمن للمستفيدين منه الكفاية الاقتصادية التي تنعكس إيجابا على حياته وعلى أسرته وعلى مجتمعه، وفيه تتجلى القيم الأخلاقية بأبهى صورها، هذه القيم التي تحمل الموسرين على تخصيص المعسرين بما يسد عليهم حاجتهم مبتغين بذلك وجه الله تعالى، لا يطلبون من الناس ثناء ولا شكورا، مع مسايرة النظم السياسية في تنظيم شؤون هذه المؤسسات الوقفية، إضافة إلى استخدام أرقى ما توصلت إليه العمارة في زمنهم.

إذا عرفنا هذا عرفنا أهمية الأوقاف في المنظومة التشريعية، وعلمنا كم كان سلفنا رضوان الله تعالى عليهم أمناء على السياسة الشرعية، وعلى الشريعة، وكم كانوا حريصين كل الحرص على أن يضمنوا للناس أكبر قدر من النفع المتعدي الذي لا يقتصر أثره على حياتهم، ولا على جيلهم، ولا على أبنائهم فقط، بل يتعدى ذلك إلى ذراري لا يعلم بها إلا الله سبحانه وتعالى، قد تمتد حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وإذا اتفقنا على أن الوقف يقصد به نفع المعنيين به وإصلاح حالهم في الدين والدنيا، نستطيع حينها أن نقول: إن مصارف الوقف تتسع لتشمل سائر الصناعات التي لا قوام للحياة إلا بها، بناءً على ما قاله الإمام الغزالي في المنتظم في سلك السياسة الشرعية، حيث اعتبر أنه ينبغي أن

---

[9] - شمس العرب تسطع على الغرب "ص243-244".

يتصف بكمالات تفرقت في سائر الصناعات، وكونه يَخَدِّم لهذا الهدف سائر الصُنَّاَع والصناعات، فقياسا عليه ينبغي أن تكون مصارف الوقف شاملة لسائر الصناع والصناعات.

وما أجمل الكلمة التي قالها الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله تعالى: «إن الحضارة بكل بساطة، معناها بذل المجهود – بوصفنا كائنات إنسانية – من أجل تكميل النوع الإنساني وتحقيق التقدم، من أي نوع كان، في أحوال الإنسانية وأحوال العالم الواقعي. وهذا الموقف العقلي يتضمن استعدادا مزدوجا: فيجب أولا أن نكون متأهبين للعمل إيجابيا في العالم والحياة، ويجب ثانيا أن نكون أخلاقيين. ولن نستطيع القيام بمثل هذا العمل إلا إذا كنا قادرين على أن نهب العالم والحياة معنىً حقيقيًا»[10].

وكان أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك خير مثال على حس المسؤولية الرفيع الذي يتمتع به الولاة تجاه رعيتهم، بغض النظر عن لون وجنس ودين الإنسان، فقد «امتدت في زمنه حدود الدولة العربية إلى بلاد الهند، فتركستان، فأطراف الصين، شرقا، فبلغت مسافتها مسيرة ستة أشهر بين الشرق والغرب والجنوب والشمال. وكان ولوعا بالبناء والعمران، فكتب إلى والي المدينة يأمره بتسهيل الثنايا وحفر الآبار، وأن يعمل فوارة، فعملها وأجرى ماءها.

وكتب إلى البلدان جميعها بإصلاح الطرق وعمل الآبار. ومنع المجذومين من مخالطة الناس، وأجرى لهم الأرزاق. **وهو أول من أحدث المستشفيات في الإسلام**. وجعل لكل أعمى قائدا يتقاضي نفقاته من بيت المال. وأقام لكل مُقعد خادما. ورتب للقراء أموالا وأرزاقا. وأقام بيوتا ومنازل يأوي إليها الغرباء»[11].

---

[10] - من مقدمة كتاب (من روائع حضارتنا) ص: 38.
[11] - الأعلام للزركلي: 121/8.

هذه المسئولية الرفيعة جدا أوجدت مناخا من التنافس على خدمة الإنسان وتأمين معايشه وضرورياته وحاجاته، باعتبار أن الحاجة تنزل منزلة الضرورة، فحفظت لنا وثائق التاريخ الثابتة نماذج من الرقي الإنساني في التعامل تدل على مدى التقدم الذي بلغته الحضارة الإسلامية في زمنها، بينما كان غيرها يعيش عصورا أطلق عليها (**عصور الظلام**).

وإذا كانت «الغاية من الحضارة هي أن تقرِّب الإنسان من ذروة السعادة» على ما قاله الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله تعالى، فإنني أظن بأن نظام الوقف في الإسلام قد بلغ بالإنسان قمة السعادة والراحة ..

وقد كتب العلماء في هذه الأوجه الحضارية والمؤسسات الإنسانية الكثير، لكنني اخترت صورتين من صور آثار الوقف الحضارية، تبرز أكثر من غيرها الجانب الإنساني لحضارتنا، وذكرت مثيلاتها في بلدي طرابلس الشام، لأبين بأن كل بلاد الإسلام في تلكم الفترة شهدت هذا الرقي الإنساني بدون استثناء، فما كان الخير ليقف على حدود منطقة دون أخرى، أو يتفيأ ظلاله شعبٌ دون آخر ... الصورة الأولى في الاستشفاء والطبابة، والصورة الثانية في جبر خاطر الفقراء والمرضى..

صورتان حضاريتان فريدتان في تاريخ الأوقاف

الصورة الأولى: الطبابة

الطبابة حق لكل إنسان، ثبت هذا الحق بالشرع وبالعقل، ففي الشرع أنَّ أُسَامَةَ بْنَ شَرِيكٍ، رضي الله عنه، قَالَ: قَالَتِ الأَعْرَابُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلاَ نَتَدَاوَى؟ قَالَ صلى الله عليه وسلم:

(**نَعَمْ، يَا عِبَادَ اللهِ تَدَاوَوْا، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلاَّ وَضَعَ لَهُ شِفَاءً، أَوْ قَالَ: دَوَاءً إِلاَّ دَاءً وَاحِدًا**) قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا هُوَ؟ قَالَ: (**الْهَرَمُ**)[12].

فهذا يستلزم التعرف على الأمراض وعلى أدويتها، وابتكار وسائل لهذه المعرفة، وطرق استعمال للعلاج.

ولما كان هذا الأمر دينا، انبرى جهابذة من العلماء يتفانون في خدمة الإنسان واكتشاف أمراضه والتعرف على أدويتها، مدفوعين بوازع الدين، وبتشجيع الدولة لكل ما من شأنه المحافظة على حياة الناس. وضربوا في ذلك أمثلة رائعة، وبرّز منهم كثيرون، ودوَّن المؤرخون في طبقات الأطباء، وكان منهم المسلم وغير المسلم، ولكنهم كانوا يعيشون في كنف دولة تهتم لأمر الإنسان وتحض على خدمته وراحته، لذلك تحققت هذه الإنجازات الراقية.

هذا وقد حفظت لنا الوثائق التاريخية نماذج عن هذه الخدمة الراقية لا نجدها حتى في أيامنا هذه.

ففي كتابها (شمس الله تسطع على الغرب) أوردت المستشرقة الألمانية زغريد هونكه تحت عنوان: (مستشفيات مثالية، وأطباء لم يرَ لهم العالم مثيلا)[13] وثيقة، هي عبارة عن رسالةٍ من شاب أوربي (يقال إنه فرنسي) إلى أبيه وهو يصف حاله في مستشفى عربي في بلاد المسلمين (في قرطبة)، ومما جاء فيها:

---

[12] - أخرجه الإمام البخاري في (الأدب المفرد) باب (حسن الخُلُق إذا فقهوا) جزء من حديث رقم (291). وأخرجه الإمام الترمذي في سننه، أبواب الطب، باب: ما جاء في الدواء والحثِّ عليه، حديث رقم (2038). وقال: «وهذا حديث حسن صحيح». مؤكدا على ثبوته.

[13] - ص 227 – 228 .

«تسألني إن كنت بحاجة إلى نقود! فأخبرك بأني عندما أخرج من المستشفى سأحصل على لباس جديد وخمسِ قطع ذهبية حتى لا أضطر إلى العمل حال خروجي مباشرة فلستَ بحاجة إذن إلى أن تبيع بعض ماشيتك، ولكن عليك بالإسراع في المجيء إذا أردت أن تلقاني هنا».

ثم أخذ يشرح لوالده كيف عاملوه في المستشفى، قال: «وأما أنا فلقد سجلوا اسمي هناك بعد المعاينة، وعرضوني على رئيس الأطباء، ثم حملني ممرض إلى قسم الرجال، فحممني حماما ساخنا، وألبسني ثياباً نظيفة من المستشفى».

ثم شرع يصف له المستشفى الذي فيه «مكتبة ضخمة، وقاعة كبيرة حيث يحاضر الرئيس للطلاب.. وقاعة كبيرة للنقاهة تعزف فيها الموسيقى الجميلة، ويمضي البعض وقتهم بالمطالعة»، وقال: إنه لما قال له كبير الأطباء بعد شفائه أنه سيخرج قريباً، كَرِهَ ذلك «فكل شيء هنا جميل للغاية ونظيف جداً، الأسرَّة وثيرة، وأغطيتها من الدِمَقْسِ الأبيض، والمُلاءُ بغاية النعومة والبياض كالحرير، وفي كل غرفة من غرف المستشفى تجد الماء جارياً فيها على أشهى مايكون وفي الليالي القارسة تُدفأ كلُ الغرف. وأمَّا الطعام فحدث عنه ولاحرج!! فهناك الدجاج أو لحم الماشية يقدم يومياً لكل من يسعه هضمه».

ثم ذكر له أن «جارا له في المستشفى ادعى المرض الشديد أسبوعا كاملا أكثر مما كان عليه حقيقة رغبة منه في التمتع بشرائح لحم الدجاج اللذيذ أياما أخرى». انتهى.

فهذه المشافي النموذجية، الإنسانية بحق، كانت منتشرة في كل أرجاء الدولة الإسلامية يومها[14]، وكانت خدماتها تطال كل محتاج للاستشفاء دون تمييز، وتصرف له الأدوية اللازمة، بل وتدفع له

[14] - ينظر كتاب (شمس الله تسطع على الغرب: ص228 – 228 ، الفصل الأول من الكتاب الرابع: الأيدي الشافية. حيث ذكرت أن (قرطبة) وحدها كان فيها خمسون مستشفى في أواسط القرن العاشر...

المستشفى مبلغا من المال في مرحلة النقاهة حتى لا يضطر إلى العمل إن كان بحاجة لذلك، وكل هذا الانفاق على المرضى وعلى المستشفى من أموال أوقفت عليها. وكانت تتمتع بموقع تتوافر فيه كل شروط الصحة والجمال[15].

وأمر آخر نلحظه في هذا النص، هو أن المستشفى يشبه ما يعرف اليوم بالمستشفى الجامعي الذي يتمرس فيه خريجوا كليات الطب على ما أخذوه نظريا على يدي أساتذتهم. بل وتوضع في المستشفيات مكتبات تحوي كتبا منوعة وأهمها كتب الطب للدارسين.

البيمارستان النوري الكبير[16]

هذا البيمارستان بناه نور الدين زنكي بمال فدية أمير من أمراء الفرنجة كان قد أسره بيده، يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: « وقد أَسَرَ — أي نور الدين زنكي – بنفسه في بعض الغزات بعض ملوك الإفرنج فَاسْتَشَارَ الْأُمَرَاءَ فِيهِ هَلْ يَقْتُلُهُ أَوْ يَأْخُذُ ما يبذل من المال؟ وكان قد بذل له في فداء نفسه مالاً كثيراً، فَاخْتَلَفُوا عَلَيْهِ ثُمَّ حَسُنَ فِي رَأْيِهِ إِطْلَاقُهُ وأخذ الفداء منه، فبعث إلى

15 - ينظر المرجع السابق نفسه.

16 - ينظر (تاريخ البيمارستانات في الإسلام) للدكتور أحمد عيسى رحمه الله تعالى، ص: 206 - 223. ففيه تفصيل عن بناء هذا البيمارستان وملحقاته من أبنية ، وأوقافه، وأوجه استعمالها، وسجل بالأطباء الذين عملوا فيه. الناشر: دار الرائد العربي – بيروت، ط2 / 1401هـ – 1981م.

بلده من خلاصته من يأتيه بما افتدى به نفسه، فجاء به سريعاً فأطلقه نور الدين، فحين وصل إلى بلاده مات ذلك الملك ببلده، فأعجب ذلك نور الدين وأصحابه، وبنى من ذلك المال المارستان الذي بدمشق، وليس له في البلاد نظير، **وَمِنْ شَرْطِهِ أَنَّهُ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَإِذَا لَمْ يُوجَدْ بَعْضُ الْأَدْوِيَةِ الَّتِي يَعِزُّ وُجُودُهَا إلا فِيهِ فَلَا يُمْنَعُ مِنْهُ الْأَغْنِيَاءُ، وَمَنْ جَاءَ إليه فَلَا يُمْنَعُ مِنْ شَرَابِهِ**، وَلِهَذَا جَاءَ إِلَيْهِ نُورُ الدِّينِ وَشَرِبَ مِنْ شَرَابِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ. قُلْتُ – القائل ابن كثير – : وَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ إِنَّهُ لَمْ تَخْمُدْ مِنْهُ النَّارُ مُنْذُ بُنِيَ إِلَى زَمَانِنَا[17] هَذَا فالله أعلم»[18].

وقال ابن جبير، وقد دخل دمشق سنة (580هـ): «وبها مارستان قديم وحديث، والحديث أحفلهما وأكبرهما، وجرايته في اليوم نحو الخمسة عشر دينارا، وله قَوَمَةٌ[19]، وبأيديهم الأزِمَّةُ المحتوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التي يحتاجون إليها في الأدوية والأغذية وغير ذلك حسبما يليق بكل إنسان منهم».

وقال: "الأطباء يبكرون إليه في كل يوم، ويتفقدون المرضى، ويأمرون بإعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل إنسان منهم. وللمجانين المعتقلين أيضا ضرب من العلاج».

وأوقف عليه جملة كبيرة من الكتب الطبية، وكان يتسع لألف وثلاثمئة سرير، وكانت المعالجة فيه بالموسيقا والترويح عن المرضى بالقصاصين و المنشدين و بالأغذية و الأدوية المجانية.

وكان المريض إذا أبلَّ من مرضه أعطي حين يخرج كسوة ونقداً تكفيه لعيشته مدة نقاهته[20].

---

[17] - أي القرن الثامن هجري، فالحافظ ابن كثير توفي سنة 774هـ. هذا يعني أنه بقي أكثر من ثلاثة قرون يخدم الناس، وكل ذلك مجانا...

[18] - البداية والنهاية: 12 / 346 ، حوادث سنة 568 هـ. الناشر دار إحياء التراث العربي ، ط1/ 1408 – 1988م.

[19] - أي أناس يقومون عليه بالخدمة والاعتناء..

[20] - من كتاب (تاريخ البيمارستانات في الإسلام). مرجع سابق.

مستشفيات ومضافات

هذا وإن تقديم الخدمات في البيمارستان لم يكن مقتصرا فقط على المرضى، فلو جاء زائر وأراد الضيافة في المستشفى لم يمنع من ذلك.

وقد أورد المؤرخ خليل بن شاهين الظاهري، قصة في كتابه (**زُبدة كشف الممالك وبيان طرق المسالك**)[21] عند دخوله دمشق، وزيارته البيمارستان قصة طريفة، قال في (دمشق) من (المملكة الشامية): «وبها مارستان لم ير مثله في الدنيا قط. واتفقت نكتة أحببت ذِكرها، وهي: أني دخلت دمشق في سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة (831هـ)، وكان بصحبتي شخصٌ عجمي من أهل الفضل والذوق واللطافة، وكان قصد الحج في تلك السنة، فلما دخل البيمارستان المذكور ونظر ما فيه من المأكل والتحف واللطائف التي لا تحصر قصد اختبار حال البيمارستان المذكور، فتضاعف وأقام به ثلاثة أيام، ورئيس الطب يتردد إليه ليختبر ضعفه، فلما جس نبضه وعلم حاله وصف له ما يناسبه من الأطعمة الحسنة والدجاج المسمنة والحلواء والأشربة والفواكه المتنوعة. ثم بعد ثلاثة أيام كتب له ورقة من معناها أن **الضعيف لا يقيم فوق ثلاثة أيام**. وهذا في غاية الحذاقة والظرافة». انتهى.

وهذا يعني أيضا أن هذا البيمارستان كان حتى القرن التاسع هجري ما زال يعمل على ما رسم له في حجج الوقف، وذلك طوال أربعة قرون منذ تأسيسه في عام (546هـ).

بيمارستانات طرابلس الشام

وقد كان لطرابلس الشام حظ وافر من إنشاء المشافي العامة.

---

[21] - ص: 110.

يقول مؤرخ طرابلس الشام أستاذنا الدكتور عمر تدمري حفظه الله تعالى متكلما عن مشافي طرابلس:

«ويجسّد **البيمارستان** (دار المرضى) مثالاً حياً للتوجهات الانسانية عند الواقفين في العناية بالصحة والاستشفاء والتمريض.

وقد كان بطرابلس بيمارستانان، أحدهما بناه نائب طرابلس الأمير "**عز الدين أيبك الموصللي**" صاحب الحمام المعروف باسمه، وذلك أثناء سنوات نيابته (1295- 1299م). وكان يقوم شمال جامع البرطاسي، وقد أزيل في جريمة تدمير آثار طرابلس المملوكية عند تنفيذ مشروع تقويم النهر.

أما البيمارستان الآخر فقد بناه الأمير "**بدر الدين محمد ابن الحاج أبي بكر الحلبي**" توفي سنة 1341م. وكان على الضفة الشرقية من النهر في **محلة سويقة أُسُنْدُمُر** (السويقة).

وفي البيمارستانين جناحان، خصِّص أحدهما للرجال والآخر للنساء، ويعمل بهما بموجب الوقفية: طبيبٌ، وجراح، وممرض، وخادم، وخادمة للمرضى، مع توفير الاحتياجات اللازمة من تأمين مياه للشرب، وزيت، وقناديل للإضاءة، وفرش، وسرائر ومقاعد، واحتياجات للمرضى، من المأكولات، والأدوية على اختلافها، وتجهيز الأكفان لحالات الوفاة»[22].

---

[22] - من دراسة نشرت في جريدة البيان الطرابلسية، العدد (263) تموز 2015م، عنوان الدراسة: أوقاف طرابلس وغاياتها الإنسانية، الحلقة الثالثة. بناءً على ما جاء في الدفاتر العثمانية لأوقاف وأملاك لواء طرابلس الشام. ينظر: (الأوقاف في بلاد الشام منذ الفتح العربي الإسلامي إلى نهاية القرن العشرين) المؤتمر الدولي السابع لتاريخ بلاد الشام/ المجلد الرابع، ص: 11، من بحث مقدم من الأستاذ الدكتور عمر تدمري بعنوان: الأوقاف في طرابلس الشام من وثائق الأرشيف العثماني وأهميتها في رصد حركة العمران.

طبعا كل هذه المعلومات مأخوذة من الحجة الوقفية التي دون فيها كل ما يتعلق بالوقف ومصارفه، وتحديد منافعه..

هذا في وقت لم تكن المشافي العامة معروفة بعد في أوروبا، وأول مستشفى أنشئ سنة (1730م) في باريس، أنشأه **القديس لاندري** ثامن أساقفة باريس وأطلق عليه اسم (أوتيل ديو)... وقد وصفه أحد الأطباء العاملين فيه، فذكر من أوصافه ما لا يصدق.

كما نقلت هذا الوصف بإسهاب المستشرقة زغريد هونكه في كتابها (شمس الله تسطع على الغرب)[23].

الطبابة في أوروبا في القرن الثامن عشر ميلادي

يذكر الدكتور " **ماكس ثراد** " الذي كان طبيباً في مستشفى (أوتيل ديو) في باريس سنة (1730م) في مذكراته، وضع المستشفى الفرنسي الذي كان يعمل به قائلاً :

«كانت أرضيتها مرصوفة بالطابوق، وقد فرشت بالحشائش اليابسة، حيث كان المرضى يرقودون عليها الواحد جنب الآخر بشكل معكوس، ولم يكن هناك نظام أو أصول .

فالاطفال ينامون بين الشيوخ، والنساء بين الرجال، وكانوا يلتصقون ببعض من كثرة المرضى وضيق الردهات، وكان صوت صراخهم من الألم فقد كانوا يشكون من الجوع، إذ لم يكن في المستشفى المذكور من الطعام ما يكفي لإطعامهم لذلك كان بعض الناس من أهل الخير يتبرعون بإطعام المرضى في سبيل الله .

---

[23] - ص: 225 – 226.

وكان المستشفى المذكور قذراً مملوءً بالذباب والحشرات، تنبعث من أروقته روائح كريهة حتى إنه كان يتعذر على طبيب المستشفى أن يدخل إلى قاعة المرضى من شدة الروائح النتنة، لذلك كان يحمل معها اسفنجة مرطبة بالخل يضعها عند أنفه بين الحين والآخر، وكانت جثث الموتى تظل في مكانها حوالي 24 ساعة فتتعفن بين بقية المرضى الأحياء»[24]. انتهى.

ومع ذلك فإنك عندما تقرأ عن هذه المستشفى في بعض مواقع الدعوة المسيحية تجد العبارة الآتية: «وقد خدمت المستشفى مائة راهبة وخمسون مبتدئة. **كان هذا المستشفى الأكبر من نوعه في العالم في ذلك الزمان**»[25].

بدون تعليق.

الصورة الثانية

مراعاة الخاطر

عندما نقول: فلان طيب خاطر فلان، نقصد أنه هدّأ من روعه، وطمأنه، ولاطفه، مما يعني أنه يوجد إنسان عنده خوف من آخر، أو ينظر إلى آخر نظرة فيها الكثير من الأسى شعورا منه أن فلانا لا يوفيه حقه، أو لا يحسن التصرف معه، أو يظلمه، أو أنه يشعر بالدونيّة أمامه، الأمر الذي يولد حزنا في نفس هذا الإنسان، ولربما يولد شعورا بالنقص، كما يمكن أن ينشأ عنه شيء

[24] - المرجع: (فرهنك اسلام أوربا فارس) ترجمه إلى العربية مرتضى رهباني. نقلا عن منتديات على الشبكة العنكبوتية. وقد تكلمت المستشرقة الألمانية زغريد هونكه عن هذه المستشفى التي كانت أقدم مستشفى في باريس واسمها (أوتيل ديو) الذي أسسه القديس لاندري ثامن أساقفة باريس، وقد احترق عام 1772م ثم شيد من جديد في الموقع نفسه. ينظر (شمس الله تسطع على الغرب: ص: 225 – 226)، ففيه تفصيل عن هذه المستشفى لم يذكر هنا.

[25] -http://www.orthodox-saints.com/saint/saint_life.php?saint_id=2796

من البغض والكره بين الناس.. من هنا كان اهتمام الإسلام بنزع بذور هذه القضايا النفسية المزعجة، عن طريق تمكين عقيدة قسمة الرزق بين الناس، كما في الحديث الشريف: (**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ يُقَرِّبُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ وَيُبْعِدُكُمْ مِنَ النَّارِ إِلَّا قَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يُقَرِّبُكُمْ مِنَ النَّارِ وَيُبْعِدُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا قَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، وَإِنَّ الرُّوحَ الْأَمِينَ نَفَثَ فِي رُوْعِي أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلَا يَحْمِلْكُمُ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ عَلَى أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعَاصِي اللَّهِ، فَإِنَّهُ لَا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ**)[26].

أو عن طريق الحض على القناعة، كما في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾، وكما في قول النبي صلى الله عليه وسلم: (**لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ، وَلَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ**)[27].

وأمر آخر حض الإسلام عليه وهو إعانة الغني للفقير، ومن يملك لمن لا يملك، حتى يتحقق التكافل الاجتماعي.

ومن ذلك ما جاء في الحديث الشريف، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، رضي الله عنه، قَالَ: «بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ، قَالَ: فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (**مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ، فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى**

---

[26] - أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الزهد، باب: مَا ذُكِرَ عَنْ نَبِيِّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الزُّهْدِ، حديث رقم (34332).

[27] - أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب الرقاق، باب: الغنى غنى النفس. حديث رقم (6446).

مَنْ لَا ظَهْرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ، فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ، قَالَ: فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ»[28].

هذه التوجيهات النبوية ترجمها كثير من أهل اليسار عن طريق الأوقاف التي كانت تخصص للفقراء والمعسرين..

قصر الفقراء

من ذلك ما قام به القائد المجاهد صاحب المناقب الجميلة والأخلاق النبيلة نور الدين زنكي رحمه الله تعالى، حيث بنى قصراً جميلاً في متنزه غرب دمشق سماه (**قصر الفقراء**) في منطقة اسمها (الربوة) وقفه عليهم من أجل أن يستجِمُّوا فيه ويستريحوا ويتنزهوا حينما يريدون, **لئلا ينكسر خاطرهم عندما يرون الأغنياء في نزهاتهم وهم غير قادرين على فعل مثلهم, ولئلا تشتعل الأحقاد في القلوب بين طبقات المجتمع** ، وقد أوقف عليه الأوقاف، وخصص له كل يوم نصيبا من اللحم يذبح ويطعم للفقراء مجانا، وكذلك سائر أصناف الطعام والفواكه.

وقد أطنب المؤرخون في الكلام عن مكان هذا القصر الذي بني في منطقة (الربوة)، ويقول في وصفها **ابن بدران**[29]: «سميت بذلك لِأَنَّهَا مُرْتَفعَة مشرفة على غوطتها – أي غوطة دمشق – ومياهها، وكل رأب مُرْتَفع على مَا حوله يُقَال لَهُ ربوة، وَبهَا مغارة لَطِيفَة بسفح الْجَبَل الغربي، وَبهَا صفة محراب، وَكَانَ بهَا جَامع وخطبة وَمحل للدرس وعدة مَسَاجِد، وَكَانَ بهَا قاعات، وأطباق، وسويقتان يشقهما نهر بردى، وَكَانَ بهَا صيادون للسمك يصطادون، والقلايون على جنب النَّهر

---

[28] - أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب اللقطة، باب: استحباب المواساة بفضول المال. حديث رقم: (18 / 1728)

[29] - عبد القادر بن أحمد بن مصطفى بن عبد الرحيم بن محمد بدران (المتوفى: 1346هـ) رحمه الله تعالى.

يقلون، ويذبح بهَا كل يَوْم خَمْسَة عشر رَأْسا من الْغنم، وهذا غير ماكان يجلب اليها من اللَّحْم من الْمَدِينَة، وَبهَا عشرَة شرايحية لَيْسَ لَهُم شغل غير الطَّبْخ والغَرْفُ فِي الزبادي والصحون وكل مَا تشتهيه الأنفس، وَكَانَ بهَا فرنان وَثَلَاثَة حوانيت برسم عمل الْخبز التنوري، وَأما الْفَوَاكِه فَلَا قيمَة لَهَا بهَا. قَالَ البدري[30]: وَلَقَد اشْتريت رَطْل التوت مِنْهَا بِربع دِرْهَم وَمثله الرطل الدِّمَشْقِي من المشمش والتفاح. قَالَ: وَبهَا حمام لَيْسَ لَهُ نَظِير على وَجه الارض لِكَثْرَة مَائه ونظافته، وَله شبابيك تطل على الْأَنْهُر من فَوْقه وَمن تَحْته، وَبهَا طارمة الْمَسْجِد الديلمي الَّذِي جدده نور الدّين الشَّهِيد، وَله أوقاف على قَارِئ قرَآن، ومدرس بخاري، ومؤذن، وبواب، وقَيِّم، ووقَّاد، وَغير ذَلِك، وللتاج الْكِنْدِيّ فِي وصفهَا:

إن نورَ الدّين لما أَن رأى ... فِي الْبَسَاتِين قُصُور الْأَغْنِيَاء

عَمَرَ الربوة قصرًا شاهقًا .... نزهةً مُطلقَةً للْفُقَرَاء»[31]

وهذا المعنى ليس بغريب فنحن لو استقرأنا تاريخنا المتعلِّق بالأوقاف لوجدنا أنها لم تستوعب مناحي حياة البشر فقط، بل تعدَّتها لحفظ مصالح البهائم، كتلك الأوقاف التي خصصت أراضي شاسعة لخيل الجهاد بعد إحالتها إلى (المعاش) بسبب الهرم.

---

30 - يغلب على الظن بأنه: الشريف الحسن بن علي البدري العوضي ، قال عنه البيطار في حلية البشر: «وحفظ القرآن والمتون، وأتقن القراءات الأربع عشرة، وحضر أشياخ الوقت وأنجب، وقرأ الدروس ونظم الشعر وأطرب وأغرب، وشهد له الفضلاء، والسادة العلماء، وله ديوان مشهور بين الناس». توفي سنة 1214 هجري. رحمه الله تعالى. تنظر ترجمته في (حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر المؤلف: عبد الرزاق بن حسن بن إبراهيم البيطار الميداني الدمشقي (المتوفى: 1335هـ) ص: 525 – 526.

31 - ينظر منادمة الأطلال ومسامرة الخيال: ص 403 – 404.

كما نُقِل عن نور الدين زنكي رحمه الله تعالى أنه فكَّر بالحيوانات المسِنَّة والمريضة التي لم تعد تصلح للخدمة، وقد كان أكثر هذه الحيوانات قد اشتركت مع جيوش المسلمين في الدفاع والذود عن ديار المسلمين في وجه الصليبيين، فلم يجد شيئاً يجازيها به ويشكر صنيعها الماضي إلّا أنْ قام بتخصيص أرض تقع غرب دمشق تكثر فيها الحشائش، ويمر بها نهر بردى، تُوقَفُ هذه الأرض لحاجة تلك الحيوانات، وأقام عليها بياطرة يعتنون بها! فكانت تقضي بقية عمرها بهدوء، فلا يزعجها أحد ولا تتشرد في الفلوات وفاءً منه لما مضى لها من فِعال[32].

فهل من عظمة أكبر من هذا؟ وهل من حسن سياسة وتدبير يرتقي إلى هذا المستوى عند غير من سلك هذا الطريق؟.

نماذج من مراعاة الخاطر في أوقاف طرابلس الشام

كان قد سبق الكلام عن بيمارستانات طرابلس الشام من كلام لأستاذنا مؤرخ طرابلس الدكتور عمر تدمري الذي نشر كثيرا من الوثائق الوقفية التي تعكس الصورة الإنسانية للأوقاف في العالم الإسلامي. وكل وثيقة وقفية تعتبر بحد ذاتها نموذجا عن جبر خاطر الفقراء لأنها عادة تختم بعود ريع الوقف على الفقراء في حال تعذر الإنفاق على الأوجه الموصى بها في الوقف. (**ينظر ملحق رقم واحد**).

ومن هذه الصور وقفية لمراعاة خاطر المرضى، وهي «وقفية في غاية النبل والإنسانية والحس المرهف المنطلق من فيض النفس البشرية للواقف من أبناء هذه المدينة الخيّرة المؤمنة، تُعرف **بوقف عيادة المرضى** التي حضّ عليها الرسول الكريم، صلى الله عليه وسلم، وهي أن ينفق ريع الوقف على جماعة من الصالحين المشهود لهم بالتقى والورع والعدالة من الرجال والنساء، مهمتهم أن

---

[32] ـ ينظر كتاب من روائع حضارتنا.

يقوم اثنان منهم بعيادة أحد المرضى في داره أو في دار الشفاء، ويتحدثان بقربه وعلى مسمع منه، ويذكران كلاماً طيباً يبعث الأمل في نفسه، ويُزيل عنه الكآبة، ويُنسيه آلامه، فيخاطب أحد الرجلين الآخر بصوت مخفوض، ولكنه مسموع من المريض، ويقول له: "إن أخانا في حالة جيدة اليوم، والحمد لله، وإن وجهه مشرق، وفيه دموية وحيوية، وهو اليوم أفضل منه بالأمس، وقد علمت أنه سيستعيد عافيته في القريب العاجل"... فتتسلل هذه الكلمات الرقيقة الى أُذني المريض، فيشعر بالانتعاش، ويدبّ فيه الأمل، ويزول عنه الوهم...

وهذا الوقف الصادر عن حسٍّ مرهف، هو من أسمى المشاعر الإنسانية التي تفيض بها أهداف الواقف التي تحقّها الرحمة والتراحم، وتعالج النفس البشرية بأفضل الوسائل الوجدانية والنفسية، وذلك قبل وضع الدراسات الجامعية في علم النفس الصحي وعلاج المرضى بمئات السنين. ويختم الزائران عيادتهما للمريض بالدعاء له بالشفاء العاجل. وهكذا يفعلان في كل زيارة...»[33].

وقف الصَّحْفَة:

ومن نماذج (**جبر الخاطر**) وقفية في طرابلس الشام اسمها (**وقف الصحفة**) بحيث إنه إذا حصل أن جارية أرسلتها سيدتها او والدتها لشراء طعام ما، وأعطتها صحفة لتضع فيها الطعام، فوقعت هذه الصحفة فانكسرت، كانت تأتي بها إلى هذا الوقف وتستبدلها بغيرها صحيحة مثلها تماما. وفي ذلك يقول أستاذنا مؤرخ طرابلس الدكتور عمر تدمري حفظه الله تعالى في دراسته آنفة الذكر: «ولا ننسى في موضع الأوقاف أن نذكر وقف "الصَحْفة" أو "التَبسة" وهو يمثل الحس

33 - من دراسة نشرت في جريدة البيان الطرابلسية، العدد (263) تموز 2015م، عنوان الدراسة: أوقاف طرابلس وغاياتها الإنسانية، الحلقة الثالثة.

المرهف لدى الواقفين وعواطفهم النبيلة نحو الأولاد الصغار الذين ترسلهم أمهاتهم إلى السوق لشراء سمنة أو طحينة أو زيت، فيقع الوعاء منه في الطريق، أو ينكسر، وحتى لا يعود الى البيت فتنهره أمُّه على ضياع المال والزاد، فقد كانت بعض الوقفيات تنص على وجود متولٍ من أهل الدين والصلاح في الحي، لديه صحون وأوعية في دكانه، ويأتيه هذا الولد أو ذاك فيأخذ منه وعاءً بدل الذي ضاع، ودراهم بقيمة ما اشتراه، ويعود إلى بيته وقد سكن روعُه، ولا يخشى معاقبة أمِّه له!»[34].

مواساة من نزلت به نازلة

ومن الحجج الوقفية التي عثرنا عليها في دائرة أوقاف طرابلس نسخة منقولة عن (وقف محمود بك السنجق)، المتوفى عام (1030هـ) (ينظر ملحق رقم 5)، وهي أقدم حجة وقفية وجدناها حتى الآن، تعود إلى عام (1027هـ)، أي قبل وفاته بثلاث سنوات. وفيها إثبات تواقيع شرعية تعود إلى عام (995هـ) ، ومن جملة وجوه الصرف فيها: **تقديم مبلغ مالي لكل من نزلت به نازلة (مصيبة) من أهالي منطقة باب الحديد في طرابلس**. وهي المنطقة الملاصقة لقلعة طرابلس التاريخية. **وهذه صورة أخرى من صور جبر الخاطر** ونصها كما في الوثيقة:

(**ويصرف لأهالي محلة باب الحديد في كل سنة أربعماية درهم عثماني معاونة لهم وقت نزول العوارض السلطانية فيهم**).

وقد حددت هذه الوقفية بشكل عجيب ومفصل تفصيلا تاما كل ما يعود إلى هذه الوقفية من أملاك ووجوه صرف سواء على ذرية الواقف وعتقائه (مماليكه)، أو على الجامع الذي أنشأه الواقف وأوقف له هذه الوقوف الكثيرة والمعروف باسم الواقف (جامع محمود بك السنجق) في

---

[34] - المرجع السابق نفسه.

منطقة التبانة، والواقف المدفون مع خادمه في براح (جامع الأويسية) (ينظر ملحق رقم 5) قرب مدرسة ملحقة بالجامع أنشأها الواقف في محلة باب الحديد طرابلس، وقد خص هذا المسجد والمدرسة بشيء من الوقفيات أيضا...

واللافت في الوقفية هذا التأكيد على وجوب الحفاظ على الوقف وعلى صرف ريعه في الأوجه المحددة ومنع تبديل شيء من ذلك، فقد جاءت بعبارات شديدة فيه الدعاء على من بدل ذلك، وهذا نصها كما وردت في آخر الوقفية، طبعا بعد التصحيح لما وجب تصحيحه:

«وقد تم هذا الوقف، وانبرمت أحكامه على الأوضاع الشرعية، واطردت شروطه المرعية، فلا يباع، ولا يوهب، ولا يرهن، ولاشيء منه، ولا يستبدل، ولاشيء منه، ولا ينقل إلى أحد بوجه من الوجوه ولا بسبب من الأسباب، بل كلما مر عليه زمان أَكَّدَهُ، وأوانٌ أطَّره وسدده، فهو محرم بحرمات الله تعالى، مدفوع عنه بقوة الله تعالى، مبتغى فيه رضاء الله تعالى، لا يحل لمن يؤمن بالله وباليوم الآخر ويعلم أنه إلى ربه الكريم صاير نقض هذا الوقف وتعطيله، أو فعلٍ، أو فتوى، أو شهادة، أو قضاء، أو احتيال، أو بمناشرة[35] (!)، أو بسبب ادعان[36] (!)، مغيرا أو مبدلا على شيء من ذلك، فقد باء بغضب من الله مأواه جهنم وبئس المصير، وعليه لعنة الله ولعنة اللاعنين ولعنة الملايكة والناس أجمعين، لا يقبل الله تعالى منه صرفا ولا عدلا، ولا فريضة ولا نفلا، وهتك ستره، وحصره، وفضحه على رؤوس الأشهاد يوم الفزع الأكبر، يوم الحصرة (الحسرة) والندامة، يوم الطامّة، ﴿يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾ وعجل الله تعالى في الدنيا عقوبته، وفي

35 - لعلها (مباشرة).
36 - لعلها (ادعاء).

الآخرة والعقبى فضيحته، وجعله عبرة للمعتبرين ونكالا للظالمين، وفه..[37] عمره، وأيتم ولده، ورماه بالفقر إلى عاجله وبالعاقبة، وأحرمه شفاعة نبيه صلى الله عليه وسلم، ولا يوف (!) من هول يوم القيامة والحسرة والندامة يلحقه ﴿بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾، ﴿فمن بدله بعدما سمعه فإنما اثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم﴾ ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾.

حرر وكتب في أوائل جمادى الأولى سنة سبع وعشرين وألف (1027) من الهجرة النبوية. فعمرها أربعة قرون وزيادة تسع سنوات.

رفع المظالم عن الناس

ومن صور جبر الخاطر رفع المظالم عن الناس البسطاء والفقراء . وبخاصة الضرائب التي كان يفرضها بعض الأمراء أو الزيادات من قبل متولي الأوقاف. فيأتي أمراء آخرون يجهدون في رفع هذه المظالم عن الناس، حتى ابتكر بعضهم طريقة تبقي هذه الفرمانات شبه مخلدة حتى لا يتم التلاعب بها، وهذه الطريقة هي نحتها على الحجر في أماكن العبادة.

وقد احتفظت لنا جدر مساجد طرابلس الشام بنماذج راقية من هذه الفرمانات، منها:

---

[37] - في الأصل كلمة غير واضحة ، وقد اجتهد الناسخ ووضع كلمة (قصر) عمره، والذي أظنه أنها (وقصف عمره) من القصف الذي هو التدمير والتمزيق والكسر، وهي عبارة متداولة في بلاد الشام، يقولون (قصف الله تعالى عمر فلان) أي أماته وقتله شر قتلة..

وثيقة وقفية منقوشة على الحجر (ينظر الملحق الثاني) على يمين الباب الشرقي لجامع العطار في طرابلس: وهي عبارة عن نقش كتابي محفور على لوحة رخامية، وهو مرسوم صادر عام (821 هـ/ 1418م) عن السلطان المؤيد شيخ[38]، يمنع فيه المتولِّين على وقف الجامع من تكليف المستأجرين للأراضي والمساكن التابعة له أعباء إضافية على بدل الإيجار المتّفق عليه.

وهذا نصّه: «لما كان بتاريخ العشر الأول من ربيع الأول سنة أحد وعشرين وثمان مائة ورد المرسوم الشريف من السلطان المؤيد أبو النصر شيخ بأن لا يؤخذ من سكان وقف جامع العطار للمحتسبين من قدوم شهر ولا أذاً مكروه، إستجلاب أدعية المصلين ومن عمل به له أجره ومن خالف عليه غضب الله ولعنة الملائكة والناس أجمعين آمين».

إلغاء الضرائب

ونموذج آخر من هذه الفرمانات التي تجبر خاطر الفقراء هو عبارة عن وثيقة منقوشة على الحائط الخارجي القبلي للمدرسة القرطائية (القرطاوية) الملاصقة للجامع المنصوري الكبير في طرابلس، تتكلم عن وضع الضرائب عن سكان مدينة قدموس الشامية، وللأسف تكاد تتعرض للمحي بسبب الإهمال (ينظر الملحق الثالث)، تقول هذه الوثيقة الحجرية: «لما كان بتاريخ مستهل جمادى الآخرة سنة ست وأربعين وثمان مائة (846هـ) ورد مثال شريف مربَّع جيشي بما سومحوا به عوام القدموس بما على أنوال الحياكة، وخراج الكروم بالقدموس، مسامحة مستمرة على الدوام،

38 - هو: السُّلْطَان الْملك الْمُؤَيد أَبُو النَّصْر شيخ، المحمودي، الظَّاهِرِيّ. سُرِقَ من بِلَاده وَهُوَ صَغِير، فَصَارَ إِلَى تَاجر يُقَال لَهُ مَحْمُود شاه اليزيدي اشْتَرَاهُ بِثَلَاثَة آلَاف دِرْهَم فضَّة وَقدم بِهِ إِلَى الْقَاهِرَة على ظهر بَحر الْملح فِي سنة اثْنَتَيْنِ وَثَمَانِينَ وَسبع مائَة وعمره قَرِيبا من اثْنَتَيْ عشرَة سنة، فَأَخذه السُّلْطَان الْملك الظَّاهِر بعد موت مَحْمُود هَذَا من تركته، وَدفع إِلَى ورثته ثَلَاثَة آلَاف دِرْهَم، ورقّاه فِي خدمته، فَعرف بشيخ المحموديّ، ثمَّ أنعم عَلَيْهِ بِإمرة عشرَة، ثمَّ بإمرة طبلخاناه، وَجعله رَأس نوبَة، ثمَّ صار من جملَة أُمَرَاء الألوف. وَولي نِيَابَة طرابلس ثمَّ نِيَابَة الشَّام. تولى السلطنة سنة 815 هجري. (تنظر ترجمته في كتاب المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك 6 / 338).

لا ينقض حكمها، ولا يتغير شملها. وكتب ذلك على الجامع الكبير بإبطال هذه المظلمة عنهم لتسطر هذه الحسنة في الصحائف الشريفة استجلابا للأدعية. عز نصره. وبرز المرسوم الصالحة لهذه الدولة العادلة، خلّد الله سلطانها، الملك الظاهر جقمق الناصري، الظاهري، كافل المملكة الشريفة الطرابلسية، الكريم مولانا ملك الأمراء برسباي. وملعون ابن ملعون من يسعى في تجديد بها واستحداثها».

هذا وسكان تلك البلاد من الطائفة العلوية وليسوا من المسلمين.. ولكن الإنسانية لا تقف عن عقيدة الإنسان ولونه وجنسه، بل الإنسانية تتناول الإنسان من حيث إن الله تعالى كرمه لأنه إنسان، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلاً﴾ .

نموذج فريد من العيش في تاريخ البشرية

هذا الواقع الإنساني الراقي الذي كانت ترفل به الشعوب التي تحيا في ظل الحكم الإسلامي، كان يشكل نظام الوقف أهم دعائمه الاجتماعية والاقتصادية، وكان من أهم عوامل الاستقرار الاجتماعي. بل وكان عنوانا على مدى التقدم العلمي والإنساني الذي وصلت إليه المجتمعات المسلمة في ذلك الوقت من خلال نظام الوقف بنوعيه: الخيري والذُّري.

حتى إن النصارى الذين كانوا يعيشون مع المسلمين مواطنين في دولة الإسلام تأثر بعضهم بنظام الوقف، حيث عثرنا في ضمن الوثائق والحجج الوقفية العائدة لدائرة أوقاف طرابلس على وقفية لنصراني أوقف عقارا على أحد مساجد منطقة الأسكلة (الميناء)، وإذا تعذر فعلى فقرائها. فعكست هذه الوثيقة نموذجا من التعايش بين المسلمين والنصارى ما أظنه وصل إليه أي مجتمع آخر.

وقد علمت من أستاذنا مؤرخ طرابلس الشام الدكتور عمر عبد السلام تدمري أنه توجد وثائق عدة تثبت وقف أناس من أهل الذمة أوقافا للمساجد ...

ومما جاء في الوثيقة الوقفية التي نحن بصددها (ينظر الملحق الرابع)، أنه: «... بمجلس الشرع الشريف، ومحفل الحكم المنيف بطرابلس الشام المحمية .. حضر الذمي[39] طنوس ولد الذمي سليمان نادر من نصارى الأسكلة[40]، وهو في أرقى حال من كمال صحته وعقله وجواز تصرفاته الشرعية، ووقف وحبَّس وأكد وأضطد (!) ما هو له وملكه وبيده وتحق مطلق تصرفه، ومنتقل إليه بالشراء الشرعي بموجب حجة شرعية مؤرخة في سادس عشر من ربيع الأول الأنور سنة سبع وخمسين ومايتين وألف (1257) .. وقفه على نفسه مدة حياته لا يشاركه فيه مشارك، ولا ينازعه فيه منازع، ثم من بعده فعلى من سيحدثه الله تعالى من الأولاد وأولادهم وأولاد أولادهم ... وفي ذرية الواقف أبد الآبدين» إلى أن قال: «**فإذا مات الواقف المرقوم عن غير ذرية، أو انقطعت ذريته، فتكون الدار المذكورة بحقوقها وتوابعها... وقفاً على مصالح جامع الخطبة بأسكلة طرابلس الشام المعمور بذكر الله تعالى، فإذا تعذر ذلك والعياذ بالله تعالى فيكون وقفاً على فقراء الأسكلة**... وسطر ما وقع بالطلب في الرابع عشر من محرم الحرام سنة تسع وستين ومايتين وألف (1269)».

فبين شراء البيت ووقفه اثنتا عشْرة سنة، ويبدو أن الشاري حين وقفه لم تكن له ذرية ..

---

39 - الذميُّ يطلق على الكتابي الذي يدخل في ذمة المسلمين أي حمايتهم وحفظهم ورعايتهم. والذمة في اللغة الأمان والعهد، وأهل الذمة هم المعاهدون من أهل الكتاب وغيرهم ممن يقيم في ديار الإسلام، فعقد الذمة هو عقد أمان يصير بمقتضاه غير المسلم مواطنا في البلد المسلم يعطيه الحق في العيش مع المسلمين على التأبيد...ويرى البعض أنه يشبه موضوع الجنسية اليوم. وعليه فإن عقد الذمة يثبت جنسية صاحبه الإسلامية، بمعنى أنه مواطن في هذه الدولة، وليس بالضرورة أن يكون مسلما.

40 - وتسمى اليوم بـ (الميناء)، وكانت هي طرابلس التاريخية قبل تحريرها من الصليبيين عام 688 هـ، حيث هدمت وأعيد بنائها في الموقع الحالي المعروف بالأسواق القديمة.

وقد تم تسجيل هذه الوقفية في سجلات المحكمة الشرعية، وشهد عليها كل من: الشيخ عبدالله أفندي عبدالحي، حسن أفندي كرامي، محمد أمين أفندي مرحبا، محمد أفندي كرامي، عبدالله أفندي كرامي، عمر العشي، محمد المبيض.

إنّ هذه الحجة الوقفية النادرة والمميزة، لتعكس المدى الحضاري الذي بلغتها العلاقات الاجتماعية بين مواطني الدولة الإسلامية زمن السلطنة العثمانية، فلم يكن اختلاف الدين عائقا أمام أن يقف نصراني عقارات على مسجد.

ولولا الوثائق التاريخية التي تؤرخ لهذه الأوقاف ولمواقف أصحابها لما علمنا شيئا من ذلك. من هنا تبرز أهمية الاعتناء بالوثائق التاريخية: حفظا، ودراسة .. لأنها سجل صادق ودقيق عن أحوال الأمم والمجتمعات .. كما أنها سجل صادق وأمين عن قيمة تلك المجتمعات والأحوال التي تعيشها.

وفي الختام:

هذه نماذج قليلة تعبر عن عمق النزعة الإنسانية التي جاء بها الإسلام، وتنافَسَ فيها أبناؤه، فكان نظام الوقف الذي أعطى الحياة في ظل الدولة الإسلامية هذا البعد الحضاري الذي ما أظن أنه يوجد حتى في هذا العصر الذي يتغنى به الكثيرون بالحياة الاجتماعية في بلاد غير المسلمين. حتى إن كل حجية وقف عثرنا عليها كانت تختم بعبارة أنه إذا تعذر صرف الأوقاف على الجهات المذكورة يعود ريعه وقفا شرعيا على الفقراء.

فأمة تهتم هذا الاهتمام بفقرائها ما أظن أنه يبقى فيها صاحب حاجة، ولا فيها من ينظر إلى الأغنياء نظرة مقت وحسد، فبذلك يسود الاستقرار الاجتماعي، الذي هو عنوان الحضارة في كل زمان ومكان.

الملاحق

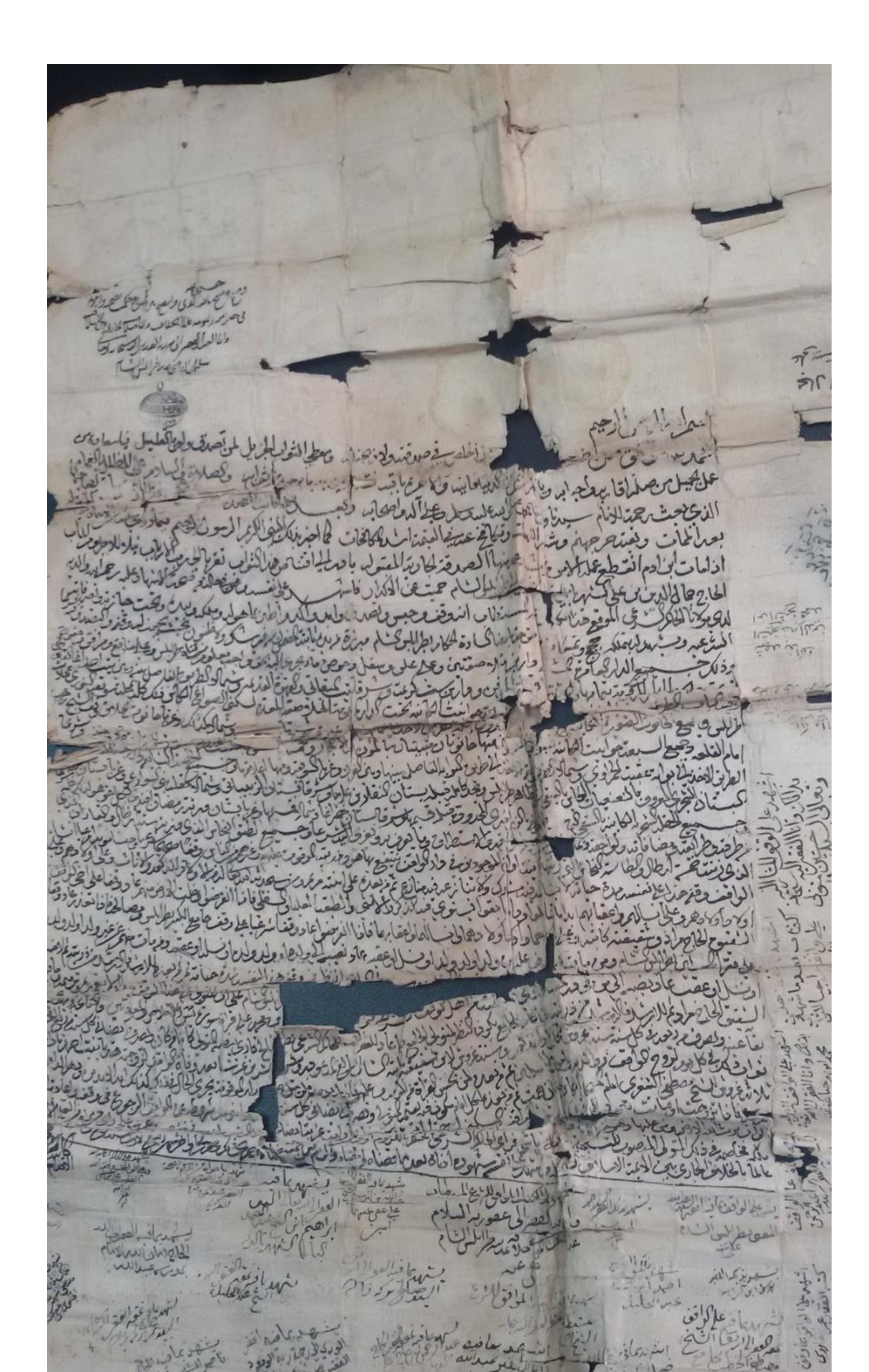
الملحق الأول

وثيقة وقفية من سجلات أوقاف طرابلس تعود إلى سنة (1109هـ) هي عبارة عن وقفية تسمى وقفية جمال الدين أبو منقار، تعود إلى العصر العثماني، أُنقذت من التلف المحتم ولله الحمد، وفيها تحديد أماكن ومخازن وبساتين، فهي سجل جغرافي لبقعة لا بأس بها من طرابلس الشام.

وهي أيضا سجل بشري مهم يعرفنا بالأشخاص وعائلاتهم التي كانت في ذلك الوقت. وفيها بيان المقدار الموقوف من القيمة بالمال فنعرف بذلك العملة المستخدمة في ذلك الوقت وقيمتها ..

ومن خلال هذه الوثيقة استطعنا معرفة أن قلعة طرابلس كان فيها مسجد، وكان له خطيب وإمام. بينما هذا المسجد ليس له أثر اليوم، ولا يعرف على وجه التحديد كيف تمت إزالته. وهذه الوثيقة تنشر لأول مرة ، وهي من محفوظات دائرة أوقاف طرابلس الشام.

وبعد أن ذكرت الأوجه والأشخاص الذين تنفق عليه هذه الوقفية، جاء ما يأتي: (**فإذا انقرضوا عاد وقفا شرعيا على وقف جامع الكبير بطرابلس ومصالحه، فإذا تعذر عاد وقفا على فقراء المسلمين بطرابلس الشام...**).



بسم الله الرحمن الرحيم

عمل جميل من صلة ...

الذي بعث رحمة للانام سيدنا ...

بعد الممات وتفتح ...

اذا مات ابن ادم انقطع عمله الا من ...

الحاج جمال الدين بن علي ...

لدى مولانا الحاكم الشرعي الموقع ...

الملحق الثاني

فرمان التخفيف عن مستأجري ومستثمري الأوقاف العائدة لجامع العطار.. الذي أصدره السلطان أبو النصر مؤيد شيخ المحمودي.



الملحق الثالث

فرمان وضع المظالم عن قرية الجاموس في سوريا، الذي أصدره الأمير برسباي نائب طرابلس زمن السلطان جقمق:

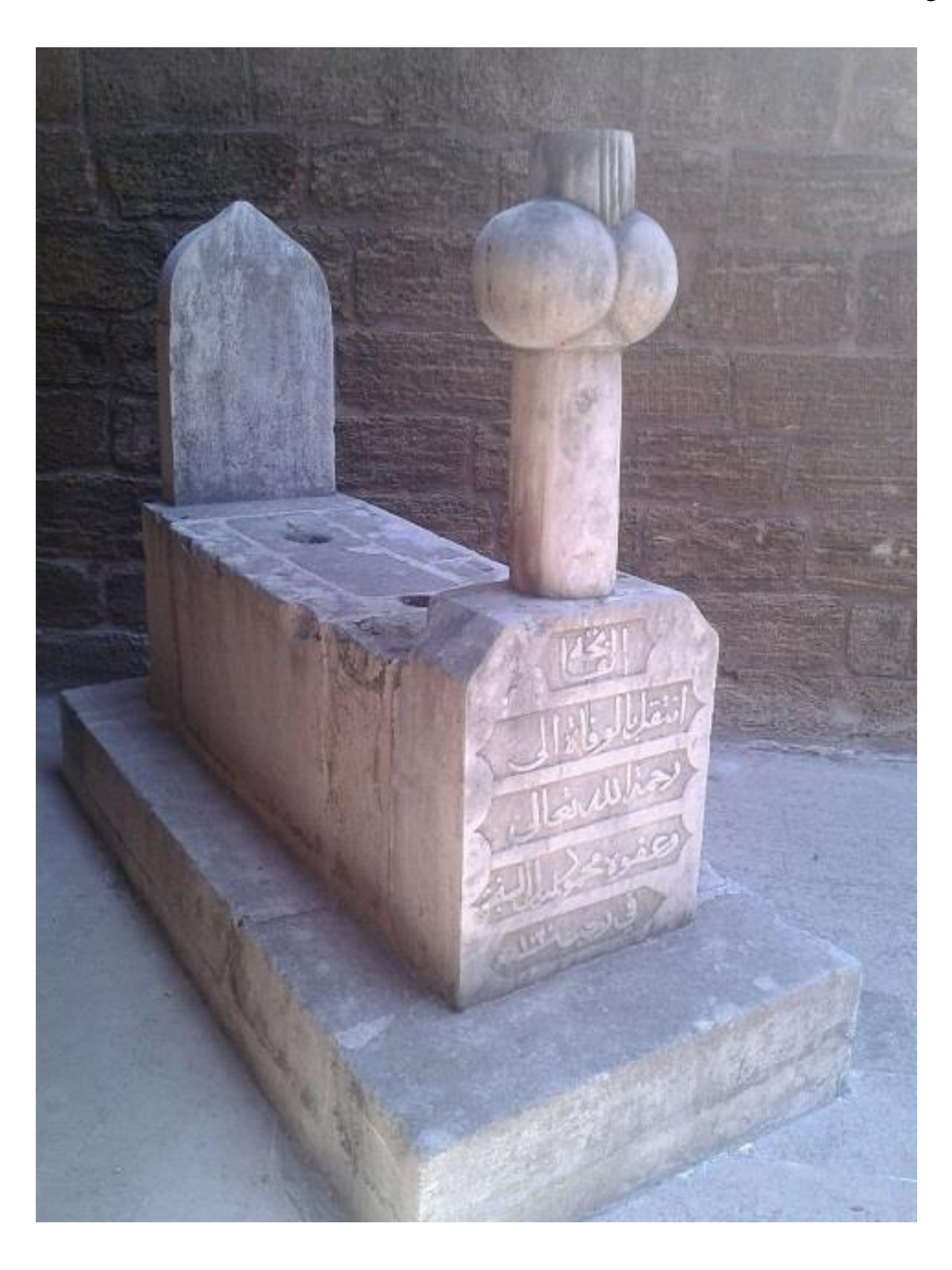




الملحق الرابع: وقفية الذمي طنوس ولد الذمي سليمان نادر من نصارى الأسكلة. صادرة في الرابع عشر من محرم الحرام سنة تسع وستين ومائتين وألف (١٢٦٩ هـ)

الملحق الخامس

قبر محمود بك السنجق صاحب وقفية السنجق، المتوفى سنة (1030 هـ). وهي أقدم وقفية عثرنا على نصها كاملا في طرابلس حتى الآن في سجلات الأوقاف، تعود إلى عام (1027هـ) أي قبل وفاة الواقف بثلاث سنين.



مراجع البحث

- سجلات ووثائق دائرة أوقاف طرابلس الخاصة.
- إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، على هامش اتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين للسيد مرتضى الزبيدي.
- الموسوعة الحرة ويكبيديا..
- الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها ولمحات من تأثيرها في سائر الأمم، المؤلف: عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (المتوفى: 1425هـ) رحمه الله تعالى
- بحث (الأوقاف الإسلامية في طرابلس الشام من وثائق الأرشيف العثماني وأهميتها في رصد حركة العمران). تأليف المؤرخ الدكتور عمر تدمري. ضمن أعمال مؤتمر (الأوقاف الإسلامية في بلاد الشام منذ الفتح العربي الإسلامي إلى نهاية القرن العشرين: المجلد الرابع / لبنان. ص: 66)، منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام – الجامعة الأردنية/ عمان. 1431هـ/2010.م
- من روائع حضارتنا تأليف الدكتور مصطفى السباعي.
- الأعلام للزركلي
- سنن الإمام الترمذي
- شمس العرب تسطع على الغرب تأليف زغريد هونكه
- تاريخ البيمارستانات في الإسلام للدكتور أحمد عيسى
- البداية والنهاية للحافظ ابن كثير.
- زُبدة كشف الممالك وبيان طرق المسالك تأليف خليل بن شاهين الظاهري.

- جريدة البيان الطرابلسية، العدد (263) تموز 2015م.
- منادمة الأطلال ومسامرة الخيال لابن بدران.
- مصنف ابن أبي شيبة.
- صحيح الإمام البخاري.
- صحيح الإمام مسلم.
- كتاب الأدب المفرد للإمام البخاري رحمه الله تعالى.
- حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر. المؤلف: عبد الرزاق بن حسن بن إبراهيم البيطار الميداني الدمشقي (المتوفى: 1335هـ) رحمه الله تعالى.
- السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي.

والحمد لله تعالى الذي بنعمته تتم الصالحات